الصباح الإسلامية
09
العدد 1872 - السنة السابعة
الثلاثاء 28 رجب 1436 - الموافق 27 مايو 2014
Tuesday 27 May 2014 - No.1872 - 7th Year

«يَخْلُقُكُم فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم خَلْقًا مِن بَعْدِ خَلْقٍ»

الإعجاز القرآني.. خلق الجنين في أطوار

■ الآيات قررت أن الإنسان يمر خلال تخلقه بمراحل متتابعة وهو ما كشفت عنه دراسات علم الأجنة الحديث

■ ظلت المعلومة مندثرة عبر قرون منذ عهد الفراعنة واليونان مروراً بالحضارة الإسلامية وانتهاء بعصر النهضة

آيات الاعجاز: قال الله تعالى: «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ».

أحاديث الاعجاز: عن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: «إذا مرّ بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله اليها ملكا، فصوّرها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك» رواه مسلم في كتاب القدر.

فهم المفسرين: قال ابن كثير في تفسيره: «قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «من نطفة أمشاج»: يعني ماء الرجل وماء المرأة اذا اجتمعا واختلطا ثم ينتقل بعد من طور الى طور ومن حال الى حال ومن لون الى لون».

فهم علماء الحديث: قال الإمام ابن قيم الجوزية –رحمه الله تعالى– في كتابه «طريق الهجرتين»: «أن للملك ملازمة ومراعاة بحال النطفة، وانه يقول: يا رب، هذه نطفة.. هذه علقة.. هذه مضغة، في أوقاتها، فكل وقت يقول فيه ما صارت اليه بأمر الله..وهو أعلم بها، وبكلام الملك، فتعرّفه (أي الملك) في أوقات، أحدها حين يخلقها الله نطفة ثم ينقلها علقة، وهو أول أوقات علم الملك بانه ولد».

مقدمة تاريخية: منذ أن لخص ارسطو النظريات السائدة في عصره والمتعلقة بتخلق الجنين، استمر الجدل بين أنصار نظرية الجنين الكامل القزم الموجود في ماء الرجل وبين أنصار نظرية الجنين الكامل القزم الموجود في بويضة المرأة، ولم يتنبّه أحد من الفريقين الى أن كلاً من حوين الرجل وبويضة المرأة يساهمان في تكوين الجنين، وهو ما قال به العالم «سبالانزاني» (Spallanzani) سنة 1775م.

وفي عام 1783 تمكن فان بندن (Van Beneden) من اثبات هذه المقولة وهكذا تخلت البشرية عن فكرة الجنين القزم.

حقائق علمية: في عام 1775م قدّم «سبالانزاني» (Spallanzani) نظريته التي تقول بان كلاً من الحوين المنوي للرجل وبويضة المرأة يساهمان في تكوين الجنين البشري حيث يقوم الحوين بتخصيب البويضة التي تبدأ بعدها بالانقسام لتتكون الخلايا الأولى للجنين.

التفسير العلمي: يقول الله تعالى في الآية السادسة من سورة الزمر: «يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ».

لقد جاء القرآن الكريم بحقائق عن خلق الانسان لم تكن البشرية قد عرفتها بعد، ومن أهم هذه الحقائق تقرير أن خلق الانسان لم يكن دفعة واحدة وانما مر بمراحل مختلفة تدرج فيها الجنين البشري من النطفة الى العلقة الى المضغة الى تكوّن العظام ثم كساء العظام باللحم ثم اكتمال الخلق.

ورغم بداهة هذه الحقيقة العلمية عند علماء الأجنة اليوم الا أنها ظلت مندثرة عبر قرون متطاولة من عهد الفراعنة واليونان القدماء، مروراً بالحضارة العربية الاسلامية وانتهاء بعصر النهضة واكتشاف الميكروسكوب.

فقد تعددت التصورات والنظريات، فـ ارسطو قال بان الانسان يتكون من دم الحيض وقد سيطرت هذه النظرية على العقل البشري زماناً طويلاً، ثم جاء الإعتقاد بان الإنسان يكون مخلوقاً خلقاً تاماً في حوين الرجل، بينما اعتقد فريق آخر من العلماء انه يُخلق في صورة قزم في بويضة المرأة.

ولقد كان انعدام الوسائل العلمية التقنية عائقاً حال دون تقدم العقل البشري في هذا الموضوع.

واستمر الجدل العلمي قائماً حتى سنة 1775م حينما اعتبر «سبالانزاني» بان كلاً من حوين الرجل وبويضة المرأة يساهمان في تكوين الجنين البشري حيث يقوم الحوين بتخصيب البويضة التي تبدأ بعدها بالانقسام لتتكون الخلايا الأولى للجنين.

وهكذا لم يتخل العلم التجريبي عن فكرة القزم البشري حتى أواخر القرن الثامن عشر، في حين أن القرآن الكريم قد أشار الى ذلك صراحة قبل أحد عشر قرناً فقال سبحانه وتعالى: «يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فانى تصرفون» [الزمر: 6].

وقد قال علماء التفسير بان عبارة «خلقا من بعد خلق» تعني أن الانسان يمر خلال عملية تخلقه بمراحل متتابعة فصلها القرآن في سورة المؤمنون (12–14) حيث قال عز وجل: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ × ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ × ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ».

كما روي عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: من نطفة أمشاج قوله: «يعني ماء الرجل وماء المرأة اذا اجتمعا واختلطا ثم ينتقل بعد من طور الى طور ومن حال الى حال ومن لون الى لون».

وهذا ما كشف عنه علم الأجنة الحديث في القرن الثامن عشر، تصديقاً لقوله تعالى: «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ».

وجه الإعجاز: وجه الاعجاز في الآيات القرآنية هو تقريرها صراحة بان الانسان يمر خلال تخلقه بمراحل متتابعة، وانه لا يُخلق دفعة واحدة في صورة قزم، وهذا ما كشفت عنه دراسات علم الأجنة الحديث.

الإيمان بالله تعالى باعث على الحركة والنشاط والسعي

كان إيمان الصديق بالله عظيمًا، فقد فهم حقيقة الإيمان وتغلغلت كلمة التوحيد في نفسه وقلبه، وانعكست آثارها على جوارحه، وعاش بتلك الآثار في حياته، فتحلى بالأخلاق الرفيعة، وتطهر من الأخلاق الوضيعة، وحرص على التمسك بشرع الله والاقتداء بهديه صلى الله عليه وسلم، وكان إيمانه بالله تعالى باعثًا له على الحركة والهمة والنشاط والسعي، والجهد والمجاهدة، والجهاد والتربية، والاستعلاء والعزّة. وكان في قلبه من اليقين والإيمان شيء عظيم لا يساويه فيه أحد من الصحابة، قال أبو بكر بن عياش: ما سبقهم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولكن بشيء وقر في قلبه. ولهذا قيل: لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح، كما في السنن عن أبي بكرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «هل رأى أحد منكم رؤيا؟» فقال رجل: أنا رأيت كأن ميزانًا نزل من السماء فوزنت أنت وأبو بكر فرجحت أنت بأبي بكر، ثم وزن أبو بكر وعمر فرجح أبو بكر، ثم وزن عمر وعثمان فرجح عمر، ثم رفع الميزان، فاستاء لها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: «خلافة نبوة، ثم يؤتي الله الملك من يشاء».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس فقال: «بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها التفتت إليه البقرة، فقالت: إني لم أخلق لهذا، ولكني خلقت للحرث، فقال الناس: سبحان الله! (تعجبًا وفزعًا) أبقرة تتكلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإني أؤمن به وأبو بكر وعمر. قال أبو هريرة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وبينما رجل في غنمه إذ عدا الذئب فذهب منها بشاة، فطلب حتى كأنه استنقذها منه، فقال له الذئب: هذا استنقذتها مني، فمن لها يوم السبع، يوم لا راعي لها غيري؟ فقال الناس: سبحان الله، ذئب يتكلم؟ قال صلى الله عليه وسلم: فإني أومن بذلك أنا وأبو بكر وعمر وما هما ثم».

ومن شدة إيمانه والتزامه بشرع الله تعالى وصدقه وإخلاصه للإسلام أحبه النبي صلى الله عليه وسلم، وأصبحت تلك المحبة مقدمة عند النبي صلى الله عليه وسلم على غيره من الصحابة.

فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل، قال: فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ قال: «عائشة». فقلت: من الرجال؟ قال: «أبوها». قلت: ثم من؟ قال: «عمر بن الخطاب». فعد رجالا.

وبسبب هذا الإيمان العظيم والتزامه بشرع الله القويم ولجهوده التي بذلها لنصرة دين رب العالمين استحق بشارة رسول الله بالجنة، وأنه يدعى من جميع أبوابها. فعن أبي موسى الأشعري أنه توضأ في بيته ثم خرج، فقلت: لألزمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولأكونن معه يومي هذا. قال: فجاء المسجد فسأل عن النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: خرج ووجه ها هنا، فخرجت على إثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس، فجلست عند الباب وبابها من جريد حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجته فتوضأ، فقمت إليه، فإذا هو جالس على بئر أريس وتوسط قفها وكشف عن ساقيه ودلاهما في البئر، فسلمت عليه ثم انصرفت فجلست عند الباب، فقلت: لأكونن بواب رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم، فجاء أبو بكر فدفع الباب، فقلت: من هذا، فقال: أبو بكر، فقلت: على رسلك، ثم ذهبت فقلت: يا رسول الله، هذا أبو بكر يستأذن، فقال: «ائذن له وبشره بالجنة»، فأقبلت حتى قلت لأبي بكر: ادخل ورسول الله يبشرك بالجنة، فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم معه في القف ودلى رجليه في البئر كما صنع النبي صلى الله عليه وسلم وكشف عن ساقيه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب (أي الجنة) يا عبدالله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام وباب الريان». فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما على هذا الذي يُدعى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال: هل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر».

العلاقة بين القصص القرآني والأخلاق وتأثيرها في تربية الصحابة

■ لا ينتظم أمر الأمة إلا بمصلحين ورجال أعمال قائمين وفضلاء هادين لهم شروط معلومة وأخلاق معهودة

ان القصص القرآني غني بالمواعظ والحكم والأصول العقدية، والتوجيهات الأخلاقية، والأساليب التربوية، والاعتبار بالأمم والشعوب، والقصص القرآني ليس أمورًا تاريخية لا تفيد الا المؤرخين، وانما هي أعلى وأشرف وأفضل من ذلك! فالقصص القرآني مملوء بالتوحيد، والعلم، ومكارم الأخلاق، والحجج العقلية، والتبصرة والتذكرة، والمحاورات العجيبة.

واضرب لك مثلاً من قصة يوسف –عليه السلام– متأملاً في جانب الأخلاق التي عرضت في مشاهدها الرائعة، قال علماء الأخلاق والحكماء: «لا ينتظم أمر الأمة الا بمصلحين، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين هادين، لهم شروط معلومة وأخلاق معهودة، فان كان القائم بالأعمال نبيًا فله أربعون خصلة ذكروها، كلها آداب وفضائل بها يسوس أمته، وان كان رئيسًا فاضلاً، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها، وسيدنا يوسف –عليه السلام– حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذه عقلاء الأمم هديًا لاختيار الأكفاء في مهام الأعمال، اذ قد حاز الملك والنبوة، ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها، وانما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة، ولنذكر منها اثنتي عشرة خصلة هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة، لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن وتنبيهًا للمتعلمين الساعين للفضائل».

أهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

1 – العفة عن الشهوات، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية: «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين» [يوسف: 24].

2 – الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه «قالوا ان يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون» [يوسف: 77].

3 – وضع اللين في موضعه، والشدة في موضعها: «ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون اني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين.فان لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون» [يوسف: 59، 60] فبداية الآية لين، ونهايتها للشدة.

4 – ثقته بنفسه بالاعتماد على ربه: «قال اجعلني على خزائن الأرض اني حفيظ عليم» [يوسف: 55].

5 – قوة الذاكرة، ليمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون، ليضبط السياسات، ويعرف للناس أعمالهم: «وجاء اخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون» [يوسف: 58].

6 – جودة المصورة والقوة المخيلة حتى تأتي بالأشياء تامة الوضوح: (اذ قال يوسف لأبيه يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) [يوسف: 4].

7 – استعداده للعلم، وحبه له، وتمكنه منه: «واتبعت ملة آبائي ابراهيم واسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون» [يوسف:38] «رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض» [يوسف:101].

8 – شفقته على الضعفاء وتواضعه مع جلال قدره وعلو منصبه، فخاطب الفتيين المسجونين بالتواضع فقال: «يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار» [يوسف: 39] وحادثهما في أمور دينهما ودنياهما بقوله: «قال لا يأتيكما طعام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله» [يوسف: 37] والثاني بقوله: «اني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون» [يوسف:37] وشهدا له بقولهما: «نبئنا بتأويله انا نراك من المحسنين» [يوسف:36].

9 – العفو مع القدرة: «قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين» [يوسف: 92].

10 – اكرام العشيرة: «اذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيرا وأتوني بأهلكم أجمعين» [يوسف: 93].

11 – قوة البيان والفصاحة بتعبير رؤيا الملك، واقتداره على الأخذ بأقدة الراعي والرعية والسوقة، ما كان هذا الا بالفصاحة المبنية على الحكمة والعلم: «فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين» [يوسف: 54].

12 – حسن التدبير «قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبله الا قليلا مما تأكلون» [يوسف: 47] تالله، ما أجمل القرآن، وما أبهج العلم.

■ التذكير بالأخلاق الرفيعة التي تفيد الفرد والأسرة والأمة والحضارة من أهداف القصص القرآني

لا شك في أن العلاقة بين القصص القرآني والأخلاق متينة؛ لأن من أهداف القصص القرآني التذكير بالأخلاق الرفيعة التي تفيد الفرد، والأسرة، والجماعة والدولة، والأمة، والحضارة، كما أن من أهداف القصص القرآني التنفير من الأخلاق الذميمة التي تكون سببًا في هلاك الأمم والشعوب.